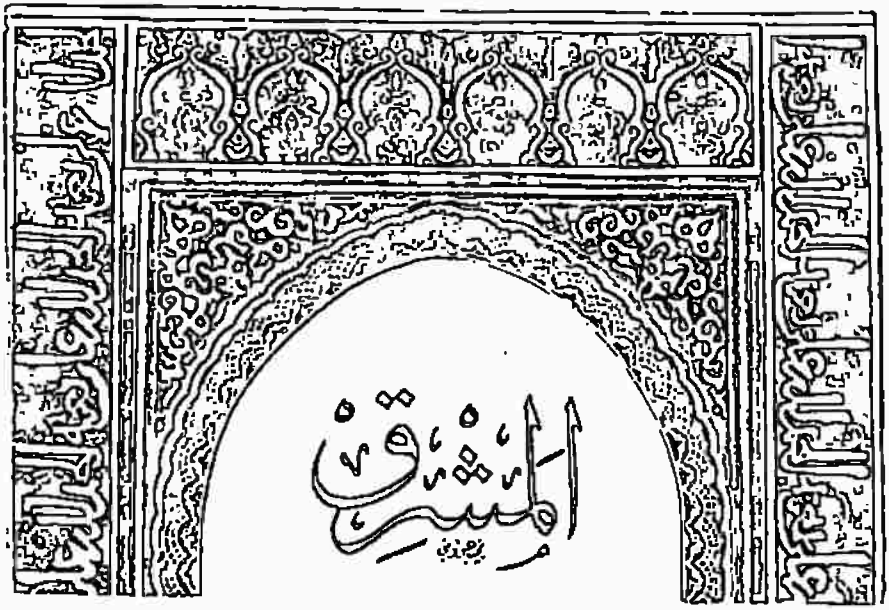

كانون الاول ١٩٢٩

السيد فريديانو جيانيني

بقلم الخوري بطرس غالب

يغتنم « المشرق » هذه الفرصة السعيدة بمرور ربع قرن على ترقية صاحب النيافة السيد فريديانو جيانيني الى المقام الاسقفي ، وعلى توليه شؤون القنصلية الرسولية في سورية ، فيقدّم لنيافته تهانئه البنوية الخالصة متمنياً له حياة عديدة يقضيها في خدمة الدين والوطن ؛ وينشر مع الشكر النبذة التالية التي وضعها بهذه المناسبة حضرة الخوري بطرس غالب.

تحتفل الطوائف باسرها في هذه السنة بمرور خمس وعشرين سنة على ترقية السيد فريديانو جيانيني الى المقام الاسقفي ، وتعيينه نائباً رسولياً على حلب ، وقاصداً رسولياً في سورية. ولا بدع ان التفّ حول شخصه الاثيل عظماء رجال الدين والدنيا تحيط بهم جماهير المعجبين بصفاته السامية وفضائله وفضله وحنكته وحكمته ، وقد برهن عنها كلها في مدار قصادته ، فانالته ثقة الاحبار الاعاظم الذين توالوا على كرسي بطرس ، على اختلاف خططهم ، وتباين الطرق التي سلكوها الى غاية الكنيسة الابدية. والحق يقال انه لحادث نادر الوقوع ان يبقى متولياً مدة ربع قرن مهمّةً خطيرة كالقصادة الرسولية رجلٌ فرد اجتازت في

ايامه البلاد المشرقية ازمنة عصيبة ، تتالى فيها الانقلاب العثماني ، ثم الحرب الكبرى ، ثم الانتداب الفرنسي ؛ واختلف فيها مستلمو زمام الامور الدينية والمدنية ؛ فعرف ان يحافظ كل المحافظة على ما اوتمن عليه ، ويوافق بين ضرورات وظيفته ومقتضيات الاحوال ؛ لا يرمي الى تنفيذ فكرته الخاصة بل الى خدمة الكنيسة والدين مضحياً بكل شيء ، حتى بعواطفه ، تنفيذاً لما يتلقاه من الاوامر ، ويستدعيه قضاء المصلحة الموكولة اليه من المرونة والحزم والمحبة المقرونة بالشدة .

دعتني هذه الاعتبارات الى وضع هذه النبذة ليقف الجميع على حياة صاحب اليوبيل . الّا اني ما استطعت الّا بالجهد والعناء ، ان استرق منه ، ومن بعض المقربين اليه ، بعض التفاصيل التي أوردها كما علمتها من مصادر موثوق بها ، وقد استعنت كثيراً برسائله الرعائية التي اصبح يضرب المثل ببلاغتها وصدق لهجتها .

١

منشأ فريديانو جيانيني ودخوله الرهبانية الفرنسيسية

ابصر النور اسكانيو جيانيني في بلدة بوزّانو ، من اعمال ابرشية لوكا في ايطالية ، في ١٦ حزيران ١٨٦١ . فعني ابواه الفاضلان بتربيته تربية مسيحية حقة ، وبذلا جهدهما لتعليمه وتهذيبه . ولمّا ترعرع سلّماه الى معلم مدرسة البلدة ليلقنه مبادئ اللغة . تقدّم في دروسه الابتدائية فلحظ فيه كاهن من اقاربه ميلاً الى الحياة الاكليريكية ، لما بدا منه من التقوى والرغبة في خدمة الهيكل ومن توقد الذهن ، فدرّسه مبادئ اللغة اللاتينية ؛ وما عتم ان دخل مدرسة الرهبان الفرنسيسيين الرسولية في بلدة جياكرنير ، من اعمال توسكانا . شعر هناك بصوت الله يدعوه الى الكمال ، فاعتنق الحالة الرهبانية تحت لواء القديس فرنسيس الاسيزي . وبعد انقضاء سنة التجربة لفظ نذوره الاولى في شهر آب سنة ١٨٧٧ واتخذ اسم فريديانو .

وصف هو نفسه حالته الروحية يوم ترهّب ، في رسالة شائقة اذاعها سنة

صاحب النياقة

السيد فريديانو جيانيني

بقلم يوسف الفضي

١٩٢١ قال :

« اننا منذ دعينا في حداثتنا الى الحياة الرهبانية تحت لواء القديس فرنسيس الاسيزي كنّا نكره التدخل في امور السياسة البشرية المحضة التي لا ترمي الّا الى غنم الخيرات الزمنية ، وما زال هذا الكره يشتد فينا لاسيما فيما يختص بالدسائس الدنيئة التي ان هي سوى عراك متواصل بين المنافع الذاتية المختلفة ، البعيدة عن المصلحة العامة . »

تلك خطبة السيد جيانيني لا يزال مثابراً عليها ، وهي التي جعلته يترفع عن السياسات البشرية ويتمسك بالحق اينما وجده ، ويجرز المسالك الصعبة بمهارة اكسبته اعتبار رؤسائه ، وعززت ثقتهم به . لانه كان ولا يزال ينظر الى مصلحة الكنيسة غير عابئ بما سوى ذلك من الشؤون .

نذر نذوره فأرسل الى دير بُوسكوأي‌فراتي ، من اقليم فلورنسة ، وهو الدير الذي قبل فيه القديس برناونتورا قبعة الكرادلة في سالف الاوان . وهناك اكبّ على درس الفلسفة فنبغ فيها . ثم عكف على علم اللاهوت ، فنال المدحة من اساتذته ، وشهادة المأذونية سنة ١٨٨٣ . ثم سيم كاهناً في ٢١ ك ١ من السنة نفسها ، وعيّن مدرّساً للفلسفة فقام بهذه الخدمة حتى سنة ١٨٩٤ . ثم كُلف تعليم اللاهوت الادبي والحق القانوني ، مدة سنتين ، فنال لقب استاذ عام للفلسفة واللاهوت ، وهو لقب يوازي رتبة الملفنة .

٢

الوظائف التي نيطت به

ولمّا تحقق رؤساؤه ما هي مقدرته وحنكته وتعمقه في القوانين ودقته في حفظها انتدبوه في سنة ١٨٩٥ لوظيفة معاون رئيس الاقليم ، ثم عيّنوه في سنة ١٨٩٦ رئيساً لدير سيانّة المعدّ للدارسين فأثقل عاتقه بوظيفتين هامتين : الرئاسة ، وتعليم اللاهوت الادبي . لكن الرؤساء ما لبثوا ان اراحوه من التعليم .

وفي سنة ١٨٩٨ سُمّي رئيساً اقليمياً فوفى الوظيفة حقها من العناية ، وزار الاديار مرشداً مصلحاً منزهاً منشطاً . وبعد سنتين استدعي برقياً الى رومية العظمى ،

حيث ألقيت على منكبيه وظيفة حارس الاراضي المقدسة. فانقاد لأوامر رؤسائه رغم مياه الى البقاء في وطنه، حيث كان قد نال منزلة عالية في القلوب ونفوذاً عظيماً في النفوس يجلبها الى الخير بوعظه ودقة ارشاده. ومشهور عنه انه خطيب مصقع يجمع بين سموّ المعاني وبلاغة الاسلوب، يجيد الايطالية واللاتينية، وقد درس على نفسه اللغة الفرنسية فاصبح يكتبها دون مساعد كما تشهد رسالتاه الاخيرتان.

وكان كهنة الرعايا يتنازعونه ليعظ في كنائسهم، وقد دعاه مطارنة ايطالية انفسهم في مدن عديدة لالقاء الخطب الدينية في حفلات حافلة، وله التآبين القيّمة التي نشرت على حدة مع بعض عظاته.

سافر الاب فريديانو جيانيني الى فلسطين، متوكلاً على الله تعالى. وحال وصوله باشر بنشاط لا يعرف الملل ترميم الكنائس والاديرة او بناءها: منها كنيسة عمواس الجميلة، التي بنيت حيث تجلّى السيد المسيح للرسولين فعرفاه لدن كسره الخبز. وقد كرّس تلك الكنيسة الكردينال فرّاري رئيس اساقفة ميلانو، صاحب المشاريع الكاثوليكية العظيمة، المتحلّي باسمى الفضائل الكهنوتية. وكان للاب جيانيني منزلة ممتازة في قلبه لانه خبر فضيلته وعلمه ومقدرته. ومنها كنيسة «جلد يسوع» في دار القضاء الروماني في القدس، وكنائس اخرى واديرة عديدة غيرما ذكرنا.

وكان اهتمامه بالروحيات والادبيات اشدّ منه بالماديات، فبذل عناية كلية بالرعايا المسلّمة الى آباء الاراضي المقدسة وسعى في ترقيتها، ودافع عن حقوق الكثلكة في القدس. ومشهور عنه انه بحنكته وقوة حجته فاز في منازعات اثارها المتعدّون على حقوق محافظة الاراضي المقدسة في سنة ١٩٠٢، واستدعت تقاريره تدخل الحكومة الفرنسية.

ولم تكن اشغاله العديدة لتقعده عن المطالعة والتأليف، ودليلنا انه نشر درساً انتقادياً في تعليم المدرسة الفرنسية التي تباهي بانتمائها الى القديس بوناونتورا ودونس سكوت، وصنّف غير ذلك من الكتب التي نالت شهرة بعيدة في عالم الادب.

٣

قصادة

ان اعمال الاب جيانيني الدالة على مزاياه الفريدة وجهت اليه انظار السيد الذكر البابا بيوس العاشر فاختاره خلفاً للمثلث الرحمات السيد كارلوس دوقال الدومينيكاني ، القاصد الرسولي في سورية ، الذي كان قد رقد بالرب مخلفاً ذكرًا طيباً واثرًا ممدوحاً . وفي ١٥ ك ٢ من السنة ١٩٠٥ عينه الحبر الاعظم رئيس اساقفة سرس شرفاً ، ونائباً رسولياً لحلب ، وقاصداً رسولياً في سورية . وكانت قصادة سورية تمتد آنذاك حتى عريش مصر .

وقبل الرسامة الاسقفية في اليوم الخامس من شهر آذار ، واستلم مهام وظيفته في اليوم الاول من نيسان للسنة نفسها واخذ حالاً يدرس احوال البلاد ، ويتعرف الى رؤساء الطوائف الكاثوليكية ، ويهتم بانجاز ما كان باشره سلفه من الاعمال ، ومنها الاثر الفريد المقام باتفاق البطريركية المارونية والقصادة الرسولية اكراماً للسيدة العذراء على مرتفع حريصا ، بين بكركي وحريصا ، يقوم حوله اديار لسائر الطوائف الكاثوليكية ، قدامه فرضة جونية البديعة وامامه ينبسط البحر سهلاً فسيحاً ازرق .

وقد أطلق على السيدة العذراء لقب « سيدة لبنان » اشارة الى تمليكها هذا الجبل المبارك المعروف بتعبده لها منذ القدم ، واصبح هذا المزار محج كل من نال نعمة من جود العذراء ، والتمس منها شفاعة ، سواء كان من المؤمنين او من غيرهم . ولا ريب في ان العذراء المجيدة قد باركت مساعي القاصد الجديد والهمته تلك الافكار الرائعة التي افرغها طيلة خمس وعشرين سنة في قالب رسائله البديع .

واذ كان من واجبات الاسقف ان يعلم ويبشر قبل اي عمل سواه استهل السيد جيانيني رسائله بحض ابنائه على اتقان درس التعليم المسيحي ، كما كان قد سبق وأمر البابا بيوس العاشر في منشوره البليغ الى الكنيسة جمعاء ؛

واردفه في السنة التالية برسالة الحّ فيها على المؤمنين ان يتقدّموا بتواتر من المناولة التي فيها حياة النفوس وقوتها . ثم توالت رسائله على مدار السنين في المواضيع الخلاصية المختلفة ، وسنقول كلمة عنها في آخر هذا المقال.

اما خطة السيد جيانيني قاصداً فلم تختلف عنها حين كان راهباً ورئيساً قال : « لو لم يكن للسياسة اختلاط بمصالح الدين وآداب الشعب المسلّم الينا لاعتزلناها تماماً بكل طيبة خاطر . لكن الامر ليس كذلك لان المصالح المشتركة عديدة . . . لذا نحن هنا لخدمة الجميع من ايّ طقس او طائفة كانوا ، ولاسيما ان مصلحة النفوس مرتبطة بالمصلحة العامة ارتباطاً.»

فتسيماً لهذه الخطة جعل مصلحة الكنيسة والكرسي الرسولي اساساً ، وسائر الشؤون وسائط لتعزيزها . فدافع عن حقوق الاكليروس ، وبسط حقيقة تعليم الكنيسة بهذا الصدد قال : « ولا يعني كلامنا (عن التدخل بالسياسة) انه يجب علينا ان نخضع لاوامر بعض السياسيين الذين يريدون ان يحصروا الاكليروس ، ولاسيما رؤساءه الاعلين ، ضمن جدران الكنائس والمواقف محظرين عليهم الاهتمام بالمصلحة العامة ؛ بل نهتم بالسياسة بالقدر اللازم للمحافظة على حقوق الكنيسة والضمائر وصونها من كل تعدٍ واستبداد.»

وقد اعرب عن افكاره هذه في رسالته عن الانقلاب الذي حدث في تركية سنة ١٩٠٨ ، فاعاد نشر تعاليم السعيد الذكر البابا لاون الثالث عشر في شكل الحكومات وهو ان حظّ الكنيسة ليس مرتبطاً بايّ نظام حكومي كان وهي لا تشجب الّا كل حكومة تعبث بالدين والآداب ، ثمّ تمنى ان يكون العهد الجديد عهد حرية حقيقية ورقي صحيح . غير ان نشاط الماسونية للقبض على ناصية الحكم حمله على تحذير ابنائه ، بل البلاد جمعاء ، من مغبة تسلّط تلك الشيعة التي تسعى في الظلام الى دكّ أس الاديان والسلطات . وفي كلتا الرسالتين قواعد اماتها الحكمة رغب صاحب النياقة الى رجال الاكليروس ان يتقيدوا بها ليحتفظوا بمنزلتهم وبنفوذهم للخير العام الاسمى.

جرت مذابح الارمن في ولاية اطنة فذهب القاصد الرسولي الى تلك الولاية وبذل جهده ليخفف ويلات الارمن المنكودي الحظ ؛ فلم يتوفق ، كما اعترف

هو نفسه ، بل اضطرّ ان يكتفي بتعزية المصابين ، وتوزيع التبرعات التي جادت بها النفوس المحسنة ولاسيما الكرسي الرسولي . وكان في تلك الايام والياً على اطنه جمال باشا السفّاح الذي نال في ما بعد شهرة مفجعة بجوره وتوحشه ، في اثناء الحرب الكبرى . فبدت منه في ذلك الوقت اعمال دلّت على ما تسلّط على نفسه الغاشمة من الاهواء والميل الى سفك الدماء .

وفي سنة ١٩١٣ زار صاحب النيافة الاساكل البحرية ، على الشواطىء السورية ، حيث توجد كنائس لاتينية . فاقلّته من ثغر الى آخر الدارعة الفرنسية « هنري الرابع » ، واحتفل باستقباله في كل مكان ايّ احتفال . وحيث لم يكن معبد كان اللاتين وسواهم يصعدون الى متن الدارعة ، فيحضرون القداس الذي يقيمه السيد جيانيني ثم يمنح الاحداث التثبيت . وكان رُبان الدارعة وضباطها يتبارون في توفير اسباب الراحة لضيفهم العالي الشأن .

اشتعلت نيران الحرب الكبرى بعد سنة فبدأ ولاة الامور يتحاملون على ممثل الكرسي الرسولي . لكنهم لم يظهروا تماماً ما كانت تكنه افئدتهم اللئيمة ، الّا بعد ان دخلت ايطالية في الحرب الى جانب دول الائتلاف .

اصدر قائد الفيلق الرابع ، جمال باشا المذكور آنفاً اوامره بان يُكره القاصد الرسولي على ترك مقرّه في حريصا ، ويغادر البلاد . على انه عدل عن ذلك بناء على تدخلات فعّالة اظهرت للاتراك سوء مغبة اعمالهم . اما جمال باشا وعزمي بك فعاملا السيد جيانيني بكل جفاء ، وكانوا ، اذا قدّم لهما عريضة ، ضربا بها عرض الحائط . ثم بثّا حوله الارصاد فكان رجال التحرّي يرقبون حركاته وسكناته ويكيدون له المكايد ليوقعوه فيها لانه كان يوزّع المساعدات التي ترده من الكرسي الرسولي ، ويوصل الاموال التي كان يبعث بها المهاجرون الى ذويهم .

جاوز الاتراك كل حدّ في تصرّفهم ، فاتوا الى مقرّ القصادة الرسولية في بيروت ، وتزعوا الشعار البابوي من على باب دار القصادة ، وباشروا وضع الاختام على الغرف . ولولا تدخل من لا يُردّ قضاؤه لكان التحامل بلغ اقصى الشدة . عندئذٍ سعى السيد جيانيني ان يسافر الى الاستانة . فنال

الرخصة بذلك . وفي سنة ١٩١٥ ركب القطار الى عاصمة السلطنة العثمانية ، وهناك عرض واقع الحال لأولي الامر ، فامرت بتوقيف كل عمل مجحف بمنزلة القاصد وحقوقه . وقد تسنى له بعد ذلك ان يرفع تقاريره وشكاويه الى المراجع العليا ، وبناء على تدخل الكرسي الرسولي ، اخذت الوزارة تتعاطى مع صاحب النيافة معاطاتها مع اترابه . الّا ان جمالًا كان يتعرض من التجاء القاصد الى الاستانة فينتقم لنفسه بتوقيف تنفيذ الاوامر الصادرة اليه امّا الرسائل المختومة والبرقيات المقفلة ، التي كان ينفذها السيد جيانيني الى الكرسي الروماني المقدس ، فكانت تسير عن طريق قنصلية ايطالية قبل دخولها في الحرب ، ثم عن طريق قنصلية النمسة . وكانت كل من هاتين القنصليتين ترسلها الى سفارتها في الاستانة ، وهذه تسلّمها بدورها للسيد دولتشي النائب الرسولي فيها .

وبهذه الطريقة أتيح للقاصد الرسولي ان يوقف الكرسي الرسولي على احوال هذه البلاد ، وما الم بها من نكبات ، ويلتمس مساعدته وتوسّطه لتخفيفها عن عاتق الاهلين . وبهذه الطريقة ايضاً تمكن من ان يُعلم الحبر الاعظم بواسطة السيد دولتشي عمّا كان يضمره جمال باشا من العداء لصاحب الغبطة السيد البطريرك الماروني . فانه ما درى بعزم السفّاح على ابعاد البطريرك الماروني وحاشيته ، في ٢٠ تموز سنة ١٩١٧ ، حتى ابرق الى السيد دولتشي يرجو منه ان يخبر رومية بذلك . وكانت تقاريره تتوالى في هذا الشأن . وامّا السيد دولتشي فكانت مخابراته متواصلة مع الصدر الاعظم في مسألة ابعاد السيد البطريرك . ونظراً للخطر المداهم لم ينتظر تعليمات رومية ، بل ذهب توًا الى الباب العالي وخاطب الوزير باسم الحبر الاعظم ثم عرض الامر للكرسي الرسولي فاجابه موافقاً على عمله . وقد نال السيد دولتشي التأكيدات اللازمة بان البطريرك لن يُبعَد . ولمّا علم صاحب النيافة بزوال هذا الخطر ذهب الى صوفر ورغب الى صاحب الغبطة الّا ينقاد الّا للقوّة والعنف . ثم تجدّدت المساعي ، بعد ايام ، لاقناع البطريرك بالذهاب الى زحلة فلم يرضَ ، فسمح له جمال باشا اذ ذاك بالمجيء الى قرنة شهوان . وفي ٢٢ تشرين الاول رخص له بالرجوع الى

بكركي . وبعد مدة ذهب السيد جيانيني لتهنئة غبطته بنجاته . فاعرب غبطته عن شكره الحميم للحبر الاعظم الذي اعتنى به تلك العناية . ومما نذكره لصاحب النيافة في ذلك الوقت العصيب اتخاذه على عاتقه الاباحة لرئيس الرهبانية اللبنانية العام ان يرهن املاك الرهبانية ، لقاء مليون فرنك ذهباً ترسل اليه من فرنسة ، لمساعدة اللبنانيين .

استسلمت اخيراً تركية للحلفاء ، ودخلت جيوشهم سورية ولبنان . فاخذت تُدسّ الدسائس ضد الانتداب الفرنسي ، واتت لجنة اميركية تستطلع رأي الاهلين في امر الدولة التي يرغبون في انتدابها . فكان لصاحب النيافة موقف لا يسع اللبنانيين الّا تقديره لانه اعرب عن افكارهم ، وأيدها ببراهين لا مردّ عليها . وكان قبلاً قد ذهب صاحب الغبطة السيد البطريرك الماروني لتجشم مشاقّ السفر الى باريس ، ليدافع ، بحجته القوية وبما له من الخدم تجاه فرنسة والبلاد وبقوّة تفويض اللبنانيين عموماً له ، عن حقوق لبنان بالاستقلال بحدوده الجغرافية الطبيعية والتاريخية ؛ والتمس من صاحب القداسة البابا بنديكتوس الخامس عشر ان يمدّ يده القديرة لتحقيق رغائب اللبنانيين . فلم ينسَ اللبنانيون ذلك ، وقد اغتنمت حكومتهم فرصة يوبيله ، فقرّرت اهداءه وسام الاستحقاق اللبناني من الدرجة الاولى « لانه في احوال حرجة ودقيقة تمكن من حفظ الصلات بين رومية والطوائف المختلفة على اتم ما يرام وخدمها جميعها في اثناء الحرب خدمات جلّى . » وكان يمكن ان يزاد انه سعى في سبيل لبنان سعياً مشكوراً .

اما الدولة الفرنسية وممثلوها فاعربوا عن تقديرهم مزايا القاصد الرسولي . فأهدوا اليه وسام جوقة الشرف من رتبة كومندور ، وكتب اليه مسيو هريو نفسه ، لما كان رئيساً للوزارة الفرنسية ، كتاباً ملؤه الثناء والشكر .

ويزين صدر ذي النيافة ايضاً وسام القديسين موريس ولازار الايطالي ، ووسام ايزابل الاسباني ، وكلاهما من رتبة كومندور .

وما تقلّص ظلّ الاتراك ورسخت قدم الدولة الفرنسية حتى استأنف صاحب النيافة تعليمه الخلاصي في رسائله الممتازة ، فبيّن منافع العهد الجديد الذي

افتتح في ظلّ فرنسة ، ذات التقاليد الشريفة العريقة في القدم . على انه لم يغفل تحذير ابنائه مما قد يمكن حدوثه من الاضرار للنفوس ، اذا هم تهاملوا في صيانتها من هجمات التعاليم والمطبوعات الكفرية والخلاعية . ثم قال انه لا يطلب حقّ الافضلية للكثلكة في بلاد تعدّدت فيها الاديان والمذاهب ، ولا يريد ان يحتقر الكاثوليك من لا يشاطرونهم عقائدهم ، لكنه يطالب بحرية الكنيسة التامة ، ويتمنى ان تستمر علاقاتها حسنة مع السلطة المدنية . ثم حثّ الكاثوليكيين ، بل ذوي الارادة الصالحة من كل طائفة ، ان يؤلفوا عصبات اجتماعية تجمل رائدها الخير العام .

اما البابا السعيد الذكر بنديكتوس الخامس عشر فكان يعطف على ممثله كل العطف ، لانه رأى فيه غيرةً على خدمة الكرسي الرسولي لا تعرف الملل وقد جاءت تقاريره التي كان يرسلها الى المجمع المقدس ذي الاختصاص مستوفية شروط البلاغة والدقة شاملةً محصةً ، وكانت ولا تزال انموذجاً لما يماثلها . وقد تنازل قداسته واظهر بعلامة حسية انه يقدر جهود ممثله حقّ قدرها فاهدى اليه رسمه الكريم ، وخط عليه بيده الطاهرة هذه العبارة : « اننا نمنح من صميم الفؤاد البركة الرسولية للاخ المحترم فريديانو رئيس اساقفة سرّس ، دلالةً على عطفنا وعربوناً لتلك النعم التي نرغبها له مكافأةً للخدمات التي ادّاها للكنيسة . »

وكان بيوس العاشر من قبله انعم على السيد جيانيني بصليب صدري ثمين تقديراً لاعماله .

وفي سنة ١٩٢١ زار الاعتاب الرسولية فشمله الحبر الاعظم بالتفاته الخاص ، ثم اتى لورد بجية الزوّار الايطاليين الذين كان يقودهم صاحب النيافة الكردينال اشيل راتي ، الذي رفعته ثقة امراء الكنيسة بمزاياه الفريدة الى مقام الحبرية العظمى ، وذلك بعد خمسة اشهر لزيارة سيدة لورد .

ولمّا عاد الى مقام قصادته راعه ما شاهد من هجمات الماسونية على الدين بحجة اصلاح البلاد وتسويد التفاهم بين عناصرها . وكان قد بدأ ابناء الارملة حملتهم بالطعن برجال الدين كعادتهم ليحطوا من كرامتهم في اعين الشعب ، ويفقدوهم

تأثيرهم . وكان صاحب الغبطة السيد البطريرك الماروني قد شجب تلك الحملات المنكرة ، فاخذ مدبّروها يتحاملون عليه ، ويصوّرونه غير ما هو حقيقة . فحبطت مساعيهم ، ولم ينالوا من كرامته ، فحذا حذوه صاحب النيافة حالًا واصدر رسالة جاءت آية في بابها من صحة التعليم وحكمة النصائح ، وابان ما هو التساهل الحقيقي الذي يقوم بالتسامح مع الاشخاص بل باحترامهم متى كانوا ذوي نية حسنة سليمة ، لكنه لا يسلم بنقض حرف واحد من تعليم الكنيسة ، اكراماً للغير واسترضاء له . وفي تلك الرسالة مديح موجه الى السيد البطريرك نقتطف منه ما يلي : «لذا نحني الرأس اجلالًا لك يا زعيم الطائفة المارونية الكريمة الاعلى ، ايها البطريرك المعظم الياس بطرس الحويك الرفيع المقام ، لانك بعين حكمتك ابصرت الخطر المحدق بابنائك ، وبذراع قوية وثابتة ازحت عنه الحجاب . فالى حسناتك العديدة التي اكسبتك قلوب بنيك ، وحببتك الى اهالي لبنان الكبير على اختلاف نزعاتهم الذين طالبت بحقوقهم وناضلت عنها امام مجلس جمعية الامم الملتئم لعقد الصلح ، والذين لا تزال بكل حقّ ممثلهم والمدافع عنهم ، الى حسناتك نستطيع ان نضيف حسنة اخرى عظيمة القدر الا وهي كشفك النقاب دون خوف ولا وجل بجرأة كلية عن مكايد الماسونية ومطامعها الوبيئة في رسالة اتت في وقتها . ونحن واثقون ان التاريخ سيقرّ قول حقارتنا . . . فليتزل الله بركاته ونعمه عليك ، يا صاحب الغبطة ، ويوفقنّ مساعيك سنين عديدة ، وليتم لك ابناء يليقون بك يتمسكون بتقاليدهم تمسكاً غير منفصم ، يطيعونك ويحبونك ويفدونك بارواحهم .»

وهنا مجال للقول ان العلاقات بين صاحب الغبطة والسيد القاصد الرسولي كانت ، ولا تزال ، وثيقة المرى . وقد اعرب السيد البطريرك عن عواطفه نحو ممثل الحبر الاعظم مرات عديدة ، اذ ردد على مسامع الكثيرين ان وجود السيد جيانيني في هذه الاحوال العصيبة هو نعمة من الله تعالى وانه لم يأت البلاد قاصد مثله . وقد ارتاح غبطته الى ان يجعل عمل لجنة اليوبيل تحت رعايته كسائر البطاركة الاجلّاء .

ومعلوم موقف صاحب النيافة بجانب البطريركية المارونية يوم اعرب ذوو الشأن عن فكرتهم بتوحيد التعليم والمدرسة وجعلها لادينيين في جميع انحاء لبنان ، وفي احوال غيرها خطيرة لا مجال لذكرها الآن.

ولم تكن الصداقة بين السيد القاصد الرسولي وسائر اصحاب النيطة مقتصرة على المجاملات ، بل كانت عبارة عن احترام متبادل وتعاون اكيد لمصلحة الكنيسة . ومما لا ريب فيه ان السيد جيانيني يرغب اشد الرغبة في ان تسود الثقة المتبادلة العلاقات التي بينه وبين الجميع وخصوصاً السادة الاساقفة ورجال الاكليروس ، ساعياً اصدق السعي لتحقيق نيات الكرسي الرسولي في سبيل تعزيز المصالح الدينية والآداب الكنسية ورفع منار الطوائف الكاثوليكية.

ولم ينحصر اعتبار القاصد الرسولي بابناء الكنيسة الكاثوليكية ، بل جاوزهم الى غيرهم من سائر الطوائف حتى غير المؤمنين . فان فريقاً كبيراً من اعيانهم ووجوههم يفاخرون بصداقة القاصد الرسولي ، وقد اظهروا ذلك بانواع مختلفة ؛ وبرهن الدروز خاصةً عن احترامهم صاحب النيافة ، فانهم في الجولتين اللتين جالها في الشوف ، قد اشتركوا مع النصارى في المهرجانات التي أقيمت تكريماً للزائر الكريم ، وامتازت دار اسرة جنبلاط في المختارة بما اجرته من الاحتفالات يوم زارها السيد جيانيني.

واما اهالي راشيا وجنوبي لبنان فقد اعربوا للقاصد عن شكرهم الجسيم لاهتمامه بشؤونهم ، ولفته انظار الحبر الاعظم الى حالتهم.

ولا يجهل احد ان الحكومة اللبنانية استشارت القصادة الرسولية في شكل الحكومة الذي يوافق لبنان.

هذا كله يدلّ على ان اللبنانيين اعتبروه حقيقةً من المخلصين لوطنهم الذي اصبح له وطناً ثانياً ، مذ ارسل اليه ، وقد صرّح بذلك اكثر من مرة. ولنا برهان آخر على صدق قوله عنايته بتطويب الاخوة المابكيين ، والحاحه على الحبر الاعظم باستجابة طلب البطريرك الماروني واساقفته . ثم الجهود التي صرفها وما زال يصرفها في قضية عبيد الله ، ابناء الرهبانية البلدية

المارونية ، الابوين نعمةالله الحرديني وشربل مخلوف بقاع كفرا ، والراهبة رفقا الريس ، من حملايا.

نعم انه بصفته رئيساً للزيارة الرسولية على الرهبانيات المارونية كان ملتزماً نوعاً بان يُعنى بامر عبيد الله هؤلاء ، لكن ما ابداه من الاندفاع في هذا السبيل لجدير بكل ثناء وشكر.

قلت ان مجمع شؤون الكنائس الشرقية قد عيّنه رئيساً للزيارة المؤلفة من السيدين الجليلين اغوسطين البستاني ، مطران صيدا ، وبطرس الغطالي ، النائب البطريركي ، المارونيين . وقد كان عهد بها اليه والى السيد البطريرك الماروني ، لكن وفرة اشغال البطريركية حالت دون مواصلة البطريرك اعمال الزيارة مع القاصد الرسولي . فاخذ صاحب النيافة يدرس احوال الرهبانية مع الزائرين الرسوليين عن كثب ، ويتحرّاها ليتمكن من ان يعرض للمجمع المقدس طرق اصلاح ناجعة للخلل الذي قد يكون تسرّب الى الرهبانيات . ثم عهد الى بعض ابناء الرهبانية انفسهم ان يبدوا آراءهم في هذا الشأن ، مع بيان الاسباب التي يستندونها اليها. وبعد ان تدبّرها الزائرون ارسلوها الى رومية ، ثم ما لبثوا ان الحّوا بطلب اعادة المجامع العامة مع بعض تعديل في طرق الانتخاب ، ففحصها المجمع المقدس وقرّر مؤخراً ان يستأنف عقد المجامع ، واطلقت للرهبان حريّتهم بان يختاروا على مسؤليتهم الرجال الاكفاء لادارة شؤونهم . ويشهد جميعهم بترفع رئيس الزيارة واعضائها عن المآرب الشخصية ، وبملاحظتهم خير الرهبانية العام.

غير ان الرجل على قدر ما تتوافر حسناته وتتجلى صفاته تكثر المساعي للحطّ من قدره . وفي ذلك عناية ربانية ترمي الى اظهار فضل صاحب الفضل ، والى حمله على ان ينسب الى الله لا اليه ما ميّزه به تعالى من الصفات الفريدة.

ففي اثناء الزيارة الاولى حملت جريدة « المناظر » عليها حملات شعواء ، ثم ما لبث صاحبها ان عرف خطأه وغيّر اعتقاده ، وفي اوقات مختلفة قامت قيامة بعض الجرائد الفرنسية والعربية ، وحاولت ان تنال من كرامة القاصد الرسولي نسبة اليه اعمالاً لم تدر في خلده . فتوالت الاحتجاجات على هذه

الاختلافات ، واخيراً كمّ السيد البطريرك الماروني افواه المتشدّقين برسالة انفذها الى صاحب النيافة اعرب فيها عن استقباحه هذه الحملات والدافعين اليها ، ونادى بفضل السيد جيانيني وخدماته له وللاساقفة وللطائفة المارونية ، وخصوصاً في اثناء الحرب الكونية ، وشكره على ذلك راجياً ان لا يعبأ بكل هذه الاقاويل . فكان لكتاب صاحب النبطة اثر جميل في النفوس قضى به على الحملة المدبّرة ضد القاصد الرسولي والزيارة الرسولية.

ولما وقف المجمع المقدس على هذه الاحوال كتب الى السيد جيانيني كتاباً مؤرخاً في ٢٢ ايار سنة ١٩٢٨ جاء فيه ما تعريبه : « ان الكرسي الرسولي يعلم حق العلم ما هي الخدمات الجلى التي ادّيتها لسورية ، والمعاونة الحكيمة التي قمت بها للاب الاقدس ، ولاسيما لهذا المجمع المقدس وهي معاونة كان يجب ان تضرم عاطفة الشكر الحميم في قلوب جميع رجال الاكليروس والعلمانيين الكاثوليكيين في ذلك القطر . . ولا يجب بل لا يمكن ان تكون هذه المحن داعياً لقلق فكرك من اي وجه كان.»

وقد تلقى القاصد الرسولي من المقامات العالية عبارات الاحترام والتعلق بشخصه الكريم واستهجان العمل الذي يرمي الى الحط من كرامته . فتعزّى قلبه وتجلّت منزلته في الصدور.

ورغم انهماكه بالاعمال الموكولة اليه ، نظر في ترميم دار القصادة في حريصا ، فبنى الطابق العلوي فيها ، والرواق المطلّ على البحر ، وغرس امامها اشجار الارز فنمت وبسقت اغصانها حتى صارت جنة فيحاء. واحاط الحديقة بسور ، وهو لا يزال يواصل الاصلاح والترميم حتى يجعل الدار لائقة بساكنيها.

وقد انشأ مدرسة للفتيات في حريصا ، وسلّم ادارتها الى راهبات قلبي يسوع ومريم الاقدسين ، ما دامت جميتهم قائمة. فاصبحت زاهرة زاهية تتلقى الفتيات فيها مبادئ الدين والآداب والعلم.

ولا مجال لذكر الحفلات التي ترأسها صاحب النيافة في مدار ربع قرن كالمحاضرات المدرسية ، وتدشين معهد الطب الفرنسي ، والمستشفى الفرنسي ، ومصحّ بجنس ، ومباركة معبد سيدة لبنان ، حيث اقام السيد البطريرك

الماروني للقداس الاول واشتراكه في ... بكنائس في فلسطين ،
وفي القاهرة حيث كرّس كنيسة ... الآباء الفرنسيسيين .
والاجتماع الفخم الذي عقد في كنيسة ... بسوريين لاجل مساعدة جياع
روسية ، الى غير ذلك مما لا يمكن ذكره في عجالة .

ولما تراكمت الاشغال عليه اقترح ان تُفصل فلسطين عن قصادة سورية وتلحق بقصادة مصر المنشأة حديثاً ، ولاسيما ان فلسطين اصبحت تحت انتداب الانكليز المتسيطرين على مصر . فاستحسن المجمع المقدس هذا الاقتراح ، وفي السنة الماضية جرى هذا الفصل عن قصادة سورية ، والالحاق بقصادة مصر .

٤

رسائله الرعائية

بقي علينا ان نقول كلمة في المواضيع التي تناولتها رسائل السيد جيانيني الرعائية . اذا قرأتها بامعان رأيتها متناسقة مترابطة ، يتدفق منها التعليم تدفق المياه العذبة من ينابيعها ، وهو تعليم سديد حكيم أُفرغ في قالب بليغ يقنع العقل ويستميل القلب الى المواءمة بين التعليم والسلوك .

في رسالته الاولى اسهب في ضرورة التقيّد باوامر الحبر الاعظم ، والانكباب على درس اصول الديانة المسيحية ، طبقاً لما فرضه السيد المسيح ، واوضحه بيوس العاشر في رسالته العامة موجباً على خدمة النفوس ان يهتموا الاهتمام الجدّي بكسر خبز التعليم المسيحي للناشئة المسيحية . التعليم اساس ، لكنه لا يكفي وحده ليجعل المؤمن قوياً في محاربة اعداء خلاصه وفي السير سيراً مرضياً لله ، بل يتحتم عليه ان يحيا بحياة المسيح ، وهذا لا يتمّ الّا بتغذية النفس بجسد يسوع ودمه . فلهذا خصّص صاحب النيافة رسالته الثانية بالمناولة المتواترة ، التي دعا اليها الحبر الاعظم عموم المؤمنين مبيناً شروطها ومنافعها كيلا يخدع السذج بسقطات البعض المخالفة لتعليم الكنيسة ورغبة السيد المسيح .

وفي سنة ١٩٠٨ حدث الانقلاب العظيم في تركية ونادى المصلحون بالحرية

والاخاء والمساواة . فبادر الراعي الساهر على رعيته الى انارة سبلها ، حتى لا تستغويهم مظاهر خلابة قد تحدث اضرارًا جسيمة ، ان جهل المؤمنون ما هي القواعد التي رسمتها الكنيسة في مثل هذه الاحوال . وهو لم ينكر ان في الانقلاب الذي حصل تقدمًا وبارق امل بالاصلاح ، ولكنه ذكر الجميع بتعاليم لاون الثالث عشر في شكل الحكومات وموقف الكنيسة تجاهها ، وقال ان ما يهمه هو ان يتيسر له السعي لخير النفوس كما هو مصمم النية ، وانه لا يلتفت للامور الزمنية الّا على قدر ما يكون لها من تأثير في الشؤون الروحية . ثم اختط للاكليروس خطة رغب اليهم ان يسلكوها ، وهي ان يجعلوا خير النفوس فوق كل منفعة وحزب ومأرب شخصي .

ثم اردف هذه الرسالة برسالة اخرى عن الحبر الاعظم ومنزلته في الكنيسة وواجبات الكاثوليكي نحوه وضرورة الانقياد لما يرسمه . ولما كان مستقبل الكنيسة متوقفًا على تربية الاحداث تربية مسيحية حقة ، تناول الموضوع في رسالته الخامسة ، فدلّ على الطرق الثلاثة التي يجب على الوالدين سلوكها توصلًا الى الغاية المنشودة : اولها المثل الصالح ، وثانيها التعليم ، وثالثها الاصلاح والتأديب . وتلك واجبات يلتزم بها الوالدون شخصيًا قبل كل احد ، فليتعاطوها بعزم وحكمة ؛ وليحذروا من تسليم اولادهم الى الخدم ليعتنوا بهم او للمدارس اللادينية التي تقتل فيهم العواطف الدينية .

ولم يفت الراعي الصالح ان ادواء عديدة تتهدد الهيئة الاجتماعية بعد ان اصبح الفساد حرًا ، فلفت انظار ابنائه بل جميع المؤمنين الى الدعاية الموجهة ضد النصرانية ، دعاية دبّرها ابناء الارملة زاعمين انه في بلاد تعدّدت فيها الاديان لا سبيل للمساواة والعدل الّا بنبذ كل ديانة ونكران وجود الله تعالى ، ليتساوى الجميع في الالحاد ، فيبنى عليه اساس جماعة بشرية جديدة قابلة للرقي والتقدم . بيّن السيد جيانيني سمّ هذه التعاليم ، وقوض اركانها ، ثم ما لبث ان اعاد الكرة في رسالته التالية في الدين والعلمانية ، فابان للملأ ، ما في كلمة « العلمانية » من الرياء ، لان العلمانية كما يفهمها ذووها ليست سوى الكفر المتستر ، ترمي الى اغفال ذكر الله تعالى ، وتناهض الدين زاعمة انه

مناقض للعلم . فزيّف اقوال هؤلاء المتشدّقين ، واوضح في رسالة اخرى واجبات الكاثوليكي الصادق المفروض عليه ان يخدم الله تماماً ، وليس له ان يكون تارةً لله وتارة للعالم ومبادئه.

ثم تناول في رسالة اخرى موضوعاً اوحت به اليه المهاجرة اللبنانية ، وهو محبة المال المفرطة ، التي تحمل هذا العدد العديد من اللبنانيين الى ترك الاوطان سعياً وراء ربح يكلّف طالبه مشقّات جسدية ومخالفات للشرائع الالهية والوضعية ؛ فناشد المؤمنين ان يكتفوا بما هو لائق لمعيشتهم لئلا يندفعوا الى ارتكاب المعاصي في سبيل الكسب الخسيس ، وذكّرهم انه من المستحيل ان يعبد الانسان ربين : الله والمال.

ولما كانت الصحف لا تزال تطنطن بحرية الفكر ، رأى من المفيد بسط تعليم الكنيسة والفلسفة في الموضوع حتى يقنع المنخدعين بتلك الدعاية الكاذبة. وابان انه لامر مستحيل تحقيق حرية الفكر كما يرتأون ، لان هناك حواجز وحدوداً لا يمكن الحرية ان تتخطاها . ففي النظام الادبي شرائع زاجرة رادعة ، وللنظام الطبيعي قوانين ، لا سبيل الى مخالفتها ، فهي قاهرة لا يستطيع احد ان يغيّرها وفي النظام العقلي حقائق لا يمكن ان تدركها العقول . تلك الرسالة كانت الاخيرة قبل الحرب التي اوجبت على السيد جيانيني ان يكسر قلمه الى ان تنتهي تلك المأساة المفجعة . وما وضعت الحرب اوزارها حتى استأنف عمل التبشير بالكلمة ، فعاد يدعو المؤمنين الى اطاعة الكنيسة ويعلمهم ان قد وضعت مجلّة للحق القانوني العام أدخل فيها تحويرات ملائمة للظروف ، وقد اذاعها واوجب العمل بموجبها البابا بنديكتوس الخامس عشر ، بعد ان وقف على تنظيمها وتبويبها نخبة من ائمة القانون رئسها الكردينال بطرس غسباري المشهود له بطول الباع في العلوم القانونية ، عدا مقدرته في ادارة شؤون الكنيسة الكاثوليكية باشراف الحبر الاعظم.

ولا عجب ان استرعى العهد الجديد ، الذي تألّق نوره بدخول الحلفاء ارض سورية ولبنان ، خاطرَ القاصد الرسولي وحمله على تكرير ارشاداته السابقة حتى يستدرك الاخطار المحتمل وقوعها . بيّن حسنات الدولة الفرنسية ،

التي لا تزال تحلف على اصدقائها القدماء ، وان اوجب عليها تغير الاحوال الوقوف موقف الحكم بين المشارب المختلفة ، ثم حذر المؤمنين من الوقوع في حبائل الذين يستفيدون من الحرية لترويج الاضاليل والفساد . وتأييداً لقوله خصّص رسالة بكاملها لحسنات الكثلكة في النظامين المدني والاجتماعي ليقنع المتعنتين بان الكنيسة الكاثوليكية بتنظيمها الحرية قد ادّت للبشرية خدمات جليلة لا يستطيع غيرها ان يؤديها . وذلك لانها جعلت للحياة معنى وشريعة بتوجيهها الافكار الى وطن يسمو الاوطان الارضية ، وسنّت قانوناً ما هو الّا شريعة الحياة الدنيا الموصلة الى الحياة الاخرى . تلك حقائق اوضحها وبرهن عن ثبوتها في رسالة بليغة . وقد ادعى كثيرون انهم القابضون على سرّ السعادة والسلام في الكون الذين هم مفتاحه ، فما كان من القاصد الرسولي الّا ان بيّن ضلال هؤلاء المتخدعين ، مثبتاً ان في وحدة الكنيسة السلام الحقيقي ، تلك موهبة لم يُنفح بها غير الكنيسة الكاثوليكية وحدها . شعر الخارجون عنها بقوتها المتأتية من وحدة السلطة فيها فارادوا ان يتشبهوا بها وان يوحدوا الكنائس المسيحية الاخرى فلم يتوفقوا الى ذلك بل ذهبت مساعيهم ادراج الرياح ، لان الصلح والاتفاق لا يتمان بتضحية الحقيقة على مذابح الاغراض ، وان حسنة ، وكل ما هنالك من جهود لا يؤدي الى الغاية المنشودة لان الحقيقة واحدة ، وهي وديعة في ذمة الكنيسة التي اقامها السيد المسيح محافظةً على التعليم الصحيح وكلفها الدعاية للسلام الحقيقي الذي بشر به الملائكة ساعة ولد ابن الله حسب الجسد . فعبثاً يحاول الناس ان يحققوا فكرة السلام ما داموا بعيدين عن السيد المسيح ومملكته . ولا يعني ذلك انه ينبغي للكنيسة ان تكره الناس بالقوة على الانقياد لتعليم الانجيل ، بل ان تقنعهم باعمالها وتبشيرها وحسناتها وافضالها لينضموا اليها ، فينالوا السلام والخلاص . وهي مع تمسكها التمسك الكليّ بالوديعة المسلمة اليها ، لا تفتأ تسعى لولوج القلوب قبل العقول بمحبتها وتساهلها مع الاشخاص مراعية ضعف الطبيعة البشرية وما يؤثر فيها من الظروف . ان الكنيسة نور لكنها محبة ايضاً ؛ ترسل اشعتها لتضيء مسالك البشر بعد ان تكون محبتها اضرمت القلوب واجتذبتها . تلك

حقيقة لسهب في ايضاحها صاحب النيافة في رسالته السابعة عشرة التي عنوانها : «نور ومحبة» وهو شعار القاصد الاسقفي. تجلت هذه الحقائق في القديسين الذين لمعوا في سماء الكنيسة المقدسة ، وكانوا ابناءها لانها ارضعتهم محبة الحق مع الحليب فصاروا اولئك الابطال الذين تفاخر بهم امهم وبلادهم . ولذا فان الكنيسة امّ القديسين ، ولنا في هذا الوطن العزيز مثال قريب في شهداء دمشق الفرنسيسيين والمسابكيين . وما هؤلاء الابطال سوى جنود مملكة المسيح يدافعون عن شرف ملكهم ، ويسعون لبسط ملكه على المسكونة. وقد تبسط في شرح هذه الحقائق السيد جيانيني في رسالتين لم ينقصا عما تقدمهما بلاغةً ، وسمو عاطفة ، ورسوخ علم. وآخر ما اتحفنا به صاحب النيافة رسالته في الحبر الاعظم ويوبيله الكهنوتي الذهبي ، وواجب الرسالة الملتزم بها كل مؤمن وطرق الرسالة المتنوّعة ، فعلى ابناء الكنيسة الصلاة والاعمال الصالحة وتنشيط الدعوات وتسهيل سبلها والتبرع لمساعدة المرسلين ، وعلى المدعوين الى هذا العمل العظيم التضحية لنشر ملك المسيح والتبشير بانجيله خلاصاً للامم . تلك امنية الحبر الاعظم ، والسعي الى تحقيقها خير ما نكرم به ابا المؤمنين في سنة يوبيله.

احدى وعشرون رسالة جمعت شتى الفوائد تؤلف كتاباً جزيل القدر يطالعه بلذة ومنفعة الكاثوليكي وغير الكاثوليكي . هذا عدا الخطب التي كان يُلقيها هذا الحبر العلّامة في فرص مختلفة فيجمع فيها بين رشاقة التعبير ودقة المعاني ومناسبتها للمقام ، حتى انه كان يلقي بلطف وكياسة الامثولات المفيدة على سامعيه فيدعوهم الى التفكر والاصلاح.

توفقت الى جمع هذه النتف من حياة صاحب اليوبيل الجليل فنشرتها تعريفاً لقدره ، ليعلم الجميع ما هي منزلة الرجل الحائز على ثقة الكرسي الرسولي واعتباره ، الذي استحق ان يسمع هذه الكلمة من فم رؤسائه : « نشكرك لانك شئت ان تواصل خدمتك للكنيسة في ظروف حرجة ونحن عديدة.»

امدّ الله في اجله ومتعنا طويلاً بانوار تعليمه ، وحفظ للكنيسة هذا الخادم الامين الحكيم ، الذي قلّده سيده تدبير هذا القسم العزيز من بيته ليرشد ويصلح ويعزّي وينشط ، بعلمه وحزمه ومثله ومحبته.